



لم يتعامل الغرب مع «الحالة» الإيرانية بالاستناد إلى هواجس المنطقة و موقفها من «المشروع الإيراني». لم يهتم العالم لتجسس العرب من «الهلال الشيعي» على ما حذر عاهل الأردن (2004)، ولم يقلق من «ولاء الشيعة» لدولة الولي الفقيه، على ما صدر عن الرئيس المصري الأسبق حسني مبارك (2006).

أدى إهمال المجتمع الدولي للمخاوف العربية المعلنة مؤسساً على افتراضين، إما عدم اكتراثه لما يمكن لإيران أن تعبثه بمتوازنات المنطقة طالما أن ذلك يجري تحت سقف مصالحه، وإما لأن ما يملكه العالم من معطيات واقعية، بعيدة عن الأوهام الانفعالية، عن إمكانات إيران وقدراتها، لا يتوافق مع ما يصدر عن طهران من موقف، ولا يتفق مع ما تتبّه المنطقة من نوبات جزع وريبة.

دارى المجتمع الدولي «الحالة» الإيرانية في كل ما يختص باختراقات طهران في كل المنطقة. تعاملت العواصم الكبرى مع ما تملكه طهران من نفوذ هنا وهناك وهنالك. تبادلت الولايات المتحدة الخدمات مع إيران لمواكبة غزوها لأفغانستان (2001) والعراق (2003)، وتعامت عن عبث تسببه السياسة الإيرانية في اليمن، على ما كانت تعلنه صناعه أيًّا كان حاكمها، وقاربت الصراع البحريني الداخلي بلبس لم يربكه إلا خروج استثنائي للسنة في الشارع مقابل «عادية» الحراك الشيعي المعارض السابق لذلك، فيما تركت إسرائيل مسؤولية إدارة التعامل مع الحصون الإيرانية في سوريا ولبنان.

لحرك السادسية في تفاوضها مع إيران عنوان واحد. القنبلة النووية الإيرانية العتيدة تهدد أمن إسرائيل، على ما تردد به تل أبيب، وما تؤكده دعوات طهران الشعبوية لـ «إزالة» إسرائيل من الوجود. والقنبلة النووية الإيرانية العتيدة تتجاوز في حال وجودها نظام المصالح الدولية، الغربية والشرقية، ما يتيح لإيران اختراق سقف داخل النظام الدولي، سواء كان أحادي الزعامة أو متعدد الأقطاب، فكان أن شهَّرَ العالم مخالبه حتى نجح في إعادة إيران إلى هوماش المسموح.

داخل المسموح دولياً سيعاد ترتيب النظام الإقليمي للمنطقة، ووفق ذلك سيكون على دول المنطقة التناطح لتحري مواقعها الجديدة داخل الخريطة المقبلة. في ذلك تنتقلُ تركيا إلى سلوك لم تكن تحتاجه قبل اتفاق «فيينا»، ويتحرك العرب، بمواقف ليست واحدة لمقاربة لأمر الواقع الجديد. أما إسرائيل، التي ستطول شكوكها ويتفاقم حردها الانتهازي، فستتجهُ لجني أفضل القطاف من حقول تلك الصفة.

وفيما تنجح الرياض في سحب الميدان اليمني من حسابات المحاصيل الإيرانية، وفيما يبدو التصعيد الإيراني ضد البحرين

علامة من علامات ذلك الإنجاز، يتحركُ المحور السوري على نحو يشي بأن مآلاته ستحددُ شكل التوازنات المقبلة. في ذلك يعلن الأسد عن «سورية المفيدة»، بما يوحي باتفاق طهران القصوى، وينشط التواصل بين موسكو وواشنطن على وقع «المنطقة العازلة» العزيزة على قلب رجب طيب أردوغان، وترسم القانفات الإسرائيلية الخطوط الحمر لحملة المباضع وراسمي الخرائط، وتتساقيُّ فصائل المعارضة، المعتدلة القابلة للصهر في بوققة الصفقات، كما تلك الخارجة عن التصنيفات، لفرض واقع ميداني يلقي أو يعاند ما يراه المبعوث الدولي ستيفان دي ميستورا مدخلاً للحل.

في تعدد المواقف العربية ما يشي أن الورشة السورية ما زالت مفتوحةً أمام احتمالات تجد كافة الأطراف أن حظوظها داخلها ما زالت رحبة. تتبادر تلك المواقف، على ما تبادرت خلال السنتين الأربع الماضية، حول دور أو لا دور بشار الأسد في دمشق. يُشتبه بموقف مصرى تسويى يقترب نظرياً من المقاربة الإيرانية، بما يبعده نظرياً عن ثوابت الرياض، فيما يصدر من تركيا في شأن سوريا ما يفصح عن اقتراب من موقف العاصمة السعودية في ذلك الملف. على أن التحرك العسكري التركي في سوريا، والمدعوم دولياً، يعد بـ «تغيير في توازن القوى في سوريا والعراق وكل المنطقة»، على ما يعلن داود أوغلو، رئيس الوزراء. على ذلك، يشي التحركان العسكريان، التركي والسعودي (الخليجي - العربي)، في سوريا واليمن، والمدعومان دولياً، بإستراتيجية علنية لضبط ما يمكن أن تتحقق إيران ما بعد «فيينا» في المنطقة.

في سعي طهران لتسوييات مصالح في المنطقة، على ما تكشف كواليس التفاوض النووي، يستنتج العارفون استعداد إيران، المستقوية بـ «فيينا»، للتخلّي عن الأسد من دون التخلّي عن سوريا، ولو بشقّها «المهم». كانت موسكو قد أوحّت بذلك قبلاً، على ما يجعل من خطاب الأسد الأخير، لا سيما في الجانب الذي يتحدث عن سوريا التي تعود لمن «يدافع عنها» (خصوصاً تلك التابعة لطهران) قاعدة نقاش تحفظ لحلفاء دمشق الأسد مصالح داخل دمشق ما بعد الأسد.

وفي ما يبدو أن النقاش الراهن يدور حول ما يمكن لحلفاء دمشق التنازل عنه، يبدو حراك الميدان، العسكري والدبلوماسي، يتحرّى حجم وهوية ونوعية السلوك الذي سيحتله المشاركون الجدد في الحلّ السوري، ذلك أن الضجيج، مهما علا صخبه وتصلّبت أدواته، يجري على ما قاعدة ما بات ثابتة، باعتراف العواصم في الحلف المضاد لنظام الأسد، من أنه سياسي، وسياسي فقط، على رغم دموية مسالكه ودراماتيكية العبور إليه.

الحياة اللندنية

المصادر: